



المختصر عن أثر الحملة الفرنسية على مصر

جمع وترتيب:

عبدالله بن سعود آل معدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل: ٦٩)

من منعطفات التاريخ التي أحدثت تحولاً وأيقظت وعياً: الحملة الفرنسية على مصر، والتي جاءت بدعوى التحضر والإنسانية، وما هي إلا نفايات الحضارة الفكرية التي ألقاها الغرب على أراضي الإسلام؛ فانبعثت روائحها تزكم الأنوف، فهل من عاقل - فضلاً عن مسلم - يتربع على مائدتها ويتناول منها لقمة؟!

إنها الحملة الفرنسية التي أزها كره الإسلام وإطفاء أنواره والطمع في أراضيه، فنزلت في مصر عام ١٢١٣هـ وأحدثت ضجيجاً عسكرياً وقتها وفكرياً اليوم، مما قد يظن بها المسلم خيراً إن سمع أحداثها من أفواه المسبحين بحمد الغرب من دون أن يتحقق.

ولذلك كان لا بد من عرضها بعيون ناقدة فاحصة؛ لقراءة ما بين سطورها؛ تنويراً للعقل، وحماية للعقيدة من إسقاط مآربها على غير مواضعها.

تمهيد:

قام نابليون بقيادة حملة فرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ، تعددت أهدافها وتنوعت ما بين أهداف دينية وسياسية واقتصادية وغير ذلك.

وكما تنوعت أهداف تلك الحملة العسكرية تنوعت أسبابها ودوافعها؛ مما جعله حدثاً تاريخياً مهماً لمن يريد - اليوم - معرفة جذور كثير من المواقف - على شتى الأصعدة - .

حاول نابليون أثناء حملته بشتى الوسائل استمالة المصريين ليقنعهم بإنسانية حملته؛ لكنه لم يفلح، إذ الشواهد من القتل والأسر وانتهاك حرمة الأزهر التي قام بها تأبى أن تتناغم مع تلك الدعوى!

كانت الحملة تريد أن تجعل من مصر مستعمرة فرنسية، وتوقعت أن هدفها سيتحقق بعد بضع عشرة سنة، لكن المصريين لم يصبروا حتى استأصلوا هذا الورم الخبيث من بطن مصر بعد ٣ سنوات فقط! فطُردت تجر وراءها

حريتها الزائفة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ المنافقون: ٨ .

دوافع الحملة:

١ - محاربة الإسلام ومحاصرة المقدسات كما فعل أجدادهم الصليبين، فهي حملة صليبية بشكل أو بآخر؛ من أجل الثأر للهزائم الصليبية السابقة.

الغرب لا ينسى تاريخه؛ كي يأخذ الأحفاد بثأر الأجداد. أما في الشرق الإسلامي - وللأسف - فكثيراً ما يُغَيَّب التاريخ، ويُحذف منه ويُضاف، ويُحَرَّف ؛ وهذا من أكبر أسباب ذوبان عقيدة الولاء والبراء والحب في الله والبغض فيه.

٢ - التنصير، فهي حملة يُوجَّهها الدافع العقدي قبل أي أطماع أخرى سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو فكرية أو غير ذلك.

٣ - إقامة إمبراطورية شرقية تابعة لفرنسا ترث الإمبراطورية العثمانية (المريضة)، ثم تزحف إلى الهند لتستردّها من بريطانيا (الإنجليز) فتستولي على تجارة الشرق ثم العالم تبعاً لذلك. لأن مصر تقع في قلب العالم العربي وتربط بين المشرق العربي والمغرب العربي. وكان هناك تنافس حربي فرنسي إنجليزي تقوده الأطماع للسيطرة على منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر، ومن سيسيّطر على مصر والبحر الأحمر

والساحل الجنوبي من شبه الجزيرة سيطر على أقصر الطرق التجارية للهند (ذات المركز التجاري القوي في أوروبا والشرق) ومن ثم السيطرة على تجارة العالم.

٤- بناء نابليون مجدداً له في الشرق.

٥- التغريب، ولذلك أقامت الحملة الفنون والمسرحيات وأتت بالنساء معها - كما سنعرف - .

والحقيقة أن نابليون سبقه الكثيرون من القناصل والوزراء والمستشرقين في التفكير بالقيام بالحملة، إلا أنه هو من قام بالتنفيذ!

وبعد أن تهيأت الظروف لغزو مصر قامت فرنسا بتوجيه حملة عسكرية لاحتلال مصر في السادس من ذي القعدة ١٢١٣هـ / ١٢ إبريل ١٧٩٨م .


أهداف الحملة:

- أهداف دينية:

١- القضاء على الدين الإسلامي، ونشر النصرانية، خاصة بعد فشل الحملات الصليبية المتكررة في القرون الوسطى والتي قادها الإمبراطور الفرنسي لويس التاسع، عام (٦٤٨هـ، ١٢٥٠م)، والتي انتهت بهزيمة نكراء لم تشهد فرنسا لها مثيلاً عبر تاريخها الاستعماري، وضاع الفرنج فيها بين القتل والأسر، فقتل ثلاثون ألفاً منهم، و أسر الباقي، بل تم أسر الملك لويس نفسه، ثم أسفرت المفاوضات النهائية عن الإفراج عنه بعد مدة من الزمن قضاه في السجن لقاء فدية مالية كبيرة، وتم الاتفاق على الجلاء الفرنجي من دمياط.

أيقن لويس التاسع ملك فرنسا أنه لا سبيل للنصر على المسلمين بالقوة الحربية حيث أن المسلمين في المعارك يريدون إحدى الحسنيين (النصر أو الشهادة)، يقول لويس: (لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب... لا بد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيل هذا المفهوم عند المسلمين، حتى يصبح مفهوماً أديباً ووجدانياً وذلك لا يتم إلا بتركيز واسع على الفكر الإسلامي وتحويله عن منطلقاته وأهدافه حتى يستسلم المسلمون أمام بقاء

القوة الغربية وتروض أنفسهم على تقبلها على نحو من اتجاه الأهواء والصدقة والتعاون).

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾  الصف: ٨ .

٢- محاولة الوصول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة (كونهما مركزاً للرسالة المحمدية) وذلك باستيلائهم على موانئ شبه الجزيرة العربية الواقعة على البحر الأحمر.

٣- محو المقدسات الإسلامية وتغيير هوية المجتمع، ولذلك قامت الحملة بهدم الجوامع والمنارات الأوزبكية بحجة توسيع الطرقات لعربات الفرنسيين - كما سيأتي -، وعاشت فيها فساداً؛ لأنها تعلم ما للمقدسات (والمساجد بشكل أخص) من مكانة في قلوب المسلمين، ففيها تُبنى العقائد التي تنطلق منها وعلى أساسها خيول المجاهدين إلى أرجاء الأرض تبلغ دين الله للبشرية وتخرج الناس من الظلمات إلى النور - بإذن الله - ؛ ولذلك انطلقت حملة نابليون من مبدأ عقدي أولاً لا من مبدأ اقتصادي أو سياسي أو غير ذلك!

- أهداف سياسية، منها:

١- استغلال ضعف الدولة العثمانية والتمهيد لسقوطها بغزو أهم ولاياتها (مصر).

٢- محاولة تعويض ما خسرتة فرنسا من المستعمرات في الهند حيث وقف الإنجليز ضد مخططاتها وأفشلوها.

٣- الانتقام من الإنجليز.

٤- قام المليونير اليهودي (روتشيلد) بتمويل حملة نابليون مقابل بناء وطن لليهود في فلسطين، وفعلاً قام صناع السفن اليهود في ميناء (جَنوة) في إيطاليا ببناء قطع الأسطول. ووعده نابليون اليهود بالوطن، وقد كانت فكرة إعادة اليهود إلى فلسطين من أهم المهام عنده؛ لكنها تحولت إلى أحلام أمام المقاومة المصرية/ الشامية. ويذكر أن اليهود حاولوا عدة مرات للانتقام من نابليون بسبب فشله في تحقيق وعده بتدبير عدة اغتياالات له لكنها فشلت.

اليهود يحملون حقداً ينمو مع الزمن، ولا يأمن جانبهم إلا غبي أو متغابي، ولذلك فدراسة تاريخهم الطويل في الغدر والممتد من عهد النبوة إلى اليوم ضرورة ملحة خاصة في هذا الزمن الذي ارتفع فيه صوت الناعقين بضرورة التقارب مع اليهود وأذناهم.

وفي السيرة النبوية ما يدل على غدرهم الذي تجذر فيهم إلى أجدادهم المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

غدر يهود بني قينقاع بامرأة مسلمة كشفوا عورتها وضحكوا عليها في السوق، فأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة. وكذلك ما فعله بنو النضير مع النبي صلى الله عليه وسلم وغدرهم به حين أرادوا اغتياله بإلقاء صخرة كبيرة على رأسه وهو في دورهم! وأيضاً غدر بني قريظة يوم الأحزاب!

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ مِّن يَتَوَلَّوهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

المائدة: ٥١.

٥- إقامة قاعدة رئيسية في المشرق العربي للسيطرة عليه. وهذا يتناقض تماماً مع مبدأ الحرية التي أفرزتها الثورة الفرنسية؛ مما يعني أن الحرية فقط لا تتجاوز حدود الدول الأوروبية (ومنها فرنسا طبعاً)، ولكن إذا تعلق الأمر بالإسلام والمسلمين والبلاد المستضعفة وتزامن مع حب التملك ونهب الثروات فهناك لا حرية لشعوب تلك البلدان ولا يحق لهم الدفاع عن أنفسهم، عندئذ ينكشف ما وراء ستار الادعاءات البراقة واللافتات الخداعة.

- أهداف اقتصادية، منها:

- ١- السيطرة على طريق التجارة الأقصر إلى الهند والشرق الأقصى.
 - ٢- سرقة واستغلال الثروات الزراعية المصرية.
 - ٣- ومن الأهداف أيضا رغبة فرنسا في العمل على شق قناة السويس. فبعد قيام الرحالة فاسكو دي جاما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في بداية القرن السادس عشر ، تغيرت معه حركة التجارة العالمية . إذ لم تعد السفن القادمة تمر على مصر ولم تعد مصر والإسكندرية قلب هذه التجارة ، بل صارت تدور حول قارة إفريقيا ، وعانت فرنسا جراء ذلك معاناة شديدة.
- وبعد ضمّ بريطانيا العظمى الهند إلى ممتلكاتها أصبح طريق رأس الرجاء الصالح حكراً على بريطانيا وحدها. لذلك ومع تزايد التنافس الاستعماري بين الدول الكبرى نشط الفرنسيون للتغلب على منافسيهم البرتغاليين في الشرق الأقصى، و كذلك البريطانيين و غيرهم ، فأرأوا أنه لا سبيل لذلك إلا بإعادة التجارة إلى طريقها القديم والحصول على ثروات الشرق بواسطة السويس، وصارت تلك الفكرة الشغل الشاغل للدبلوماسية الفرنسية رداً من الزمن فقد كان على فرنسا أن تفعل شيئاً يعيد لها مجدها وهيبته، و

يقضي كذلك على تجارة انكلترا مع الهند، ولذا ظهرت الحاجة الملحة لحفر قناة السويس.

- أهداف ثقافية، منها:

١- نشر اللغة الفرنسية؛ فانتشارها كفيل بولاء أبناء البلاد لفرنسا، خاصة أنها قامت بنقل مطبعتين لطباعة الكتب (عربية وفرنسية)، وجلبت العلماء الفرنسيين في الآثار والزراعة والصناعة بغرض نشر الثقافة الفرنسية بين أبناء البلاد؛ ولعلمه بأهمية الإعلام الذي يسهم في تشكيل العقول بأقل التكاليف! واصطحب نابليون عدداً من المستشرقين والعلماء والجغرافيين والفنانين والرسامين وعلماء الرياضيات والطبيعة والفلك والكيمياء (قرابة ١٧٥ عالماً) وأمر باصطحاب أدواتهم وأجهزتهم لأنه كان يدرك أن الدعاية هي السلاح الفتاك لحملته، والوسيلة التي ستبهر المصريين.

وللعلم فقد كانت هذه المطبعة مسروقة بأمر نابليون!

ففي مطلع حملة نابليون وقبل وصوله إلى شواطئ الإسكندرية، قام بعملية سطو مثيرة للجدل، حيث دخل إلى مقر البابوية، وسطا على المطبعة الشهيرة التي أحضرها معه إلى مصر بعد تزويدها بالحروف العربية، وكان سطوه على البابوية جزءاً من عملية إعادة تشكيل الوعي في أوروبا بعمومها، إذ كان يعتقد أن ذلك يعني

انتهاء السلطة البابوية لصالح سلطات سياسية جديدة، تنتمي في
ظاهرها إلى المجتمع المدني الناهض من أعباء البابوية الثقيلة، لكن
هذه السلطات تسير على ذات الخطى التي سارت عليها البابوية في
تكريس مفاهيم الظلم والاستعباد، وتنتمي في جوهرها إلى مدرسة
البابوية القديمة القاضية بإقرار هدنة مقدسة لصالح فعل عسكري
عنيف خارج الحدود الأوروبية.

حالة مصر قبل قدوم الحملة:

كانت الفوضى السياسية والمشاحنات بين الحكام المماليك وسرعة انقلابهم
على بعضهم - رغم ارتباط الحكم في مصر بالدولة العثمانية شكلاً فقط -
هي السمة البارزة في القرن الثاني عشر خاصة نصفه الثاني. وكان الجهل
المتفشي والتخلف المعرفي - إلا ما رحم ربي - هو العنوان العريض لتلك
الحقبة.


ضعفت السلطة العثمانية وقوي المماليك، وكان المنصبان (حاكم القاهرة
ويسمى: شيخ البلد، وأمير الحج) دائماً ما يقع الخلاف والافتتال بين
المماليك عليهما.

لم يكن النظام المملوكي سوى جثة تنتظر التغليف والتكفين ثم الدفن!

ولقد مرت بمصر - في محرم عام ١٢٠٧هـ - مجاعة صاحبها غلاء فاحش وظلم وخراب بالبلاد، وتشتت الأهالي، وانتشروا في الأسواق يصيحون ويكفون ليل نهار نساء ورجالاً صغاراً وكباراً من الجوع، ويموت في اليوم الواحد جملة من الناس، فلا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحين بالأزقة! وكان إذا وقع الحمار أو الفرس تراحموا على أكله نيئاً بل ولو كان منتناً، بل وصل بهم الحال إلى أكل الأطفال!!

وكان المماليك قد طغوا واستبدوا، وتمتعوا وحدهم بالثروات؛ مما أضعف قوة مصر العسكرية والاقتصادية والفكرية؛ وفقدت مصر بذلك مصداقيتها في تنفيذ تعهداتها بإحلال الأمن وحماية التجارة العابرة بين الشرق والغرب، إضافة لإساءة معاملة التجار الأجانب، وبخاصة الفرنسيين، الذين أوعزوا لحكومتهم باحتلال مصر.

في ميناء طولون :

جمع نابليون أكبر حشد عسكري عرفته فرنسا (شمل العلماء والأدباء والفنانين) ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾  فصلت: ١٥ ، وجاء بأحدث الأسلحة والآلات العسكرية... وكانوا كأنما هم ذاهبين في نزهة: فرحون.. مسرورون.. أملون براقصات وغناء وكأس..

وأبحر الأسطول سراً إلى مالطة (جزيرة في البحر المتوسط)، وكان الأسطول مكوناً من ٣٠٠ سفينة تحمل ٢٥ ألف جندي من المشاة و ٣٠٠٠ خيال و ٣٠٠٠ من جنود المدفعية والمهندسين، ورافقتهم ١٣ بارجة.

كان عدد الحملة قرابة ٣٤ ألف جندي بري و ١٦٠٠٠ بحري وملاح - كما روى بعضهم - .

ووصل الأسطول مالطة في ٢٥ ذي الحجة ١٢١٢هـ. ومنها - بعد الاستيلاء عليها - إلى الإسكندرية. وقد استغرقت الرحلة حتى وصولها الإسكندرية ٦ أسابيع! وصلها بتاريخ ١٧ محرم ١٢١٣هـ / ٢ يوليو ١٧٩٨م، وقبيل النزول في شواطئ الإسكندرية ارتدى نابليون القلنسوة والعباءة، وكان من قبل - وهو في البحر - قد أعد منشوراً وطبعه لتوزيعه على أهل مصر.

المقاومة في الإسكندرية:

رست السفن على بعد ١٣ كيلو لوجود المياه الضحلة . ثم نُقلت السفن إلى أبي قير شرق الإسكندرية.

وعلى الشاطئ قسم نابليون جيشه رغم الإرهاق من السفر والمشى الطويل دون طعام ولا ماء والتذمر النفسي في نفوس الجنود.

شاهد نابليون أفواجاً من أهل الإسكندرية قد احتشدوا متسلحين يستعدون للقتال، وألقى الله في قلبه الرعب، إضافة إلى رعبه من الأسطول الإنجليزي المتواجد في المنطقة.

أصدر أمره بالهجوم، فقابله أهل الإسكندرية بوابل من الرصاص - وكاد هو أن يُقتل من رصاصة أطلقتها امرأة -، وكان قائد المسلمين هو حاكم الإسكندرية: (محمد كريم).

بذل الأهالي كل قوتهم لصد هجوم الفرنسيين (ولم يكن نابليون يريد احتدام المعركة لئلا تزيد الضحايا فيخسر مكانةً في قلوب المصريين كان يهيم لها)، واعتصم المصريون مع محمد كريم في قلعة (قايتباي) وتمنعوا فيها حتى نفذت الذخيرة فاعتقلوا! وكانت المعركة بضع ساعات!

وفي يوم الأربعاء ٢٠ محرم ١٢١٣ هـ استسلم أهل الإسكندرية وتم التوقيع مع نابليون على وقف القتال!

وأطلق نابليون سراح محمد كريم زعماً منه أن ذلك نظير شجاعته، بل قلده ولاية الإسكندرية تحت إدارة أحد جنرالات الحملة وهو (كليبر)، وإنما هو في الحقيقة يريد كسب محمد كريم في صفه وانضمامه للفرنسيين ، ولكنه لما علم أنه الذي أمر بالكتابة لأهل القاهرة يستنجد بهم، واعترف أنها بخط

يده قتله في ساحة الرمل؛ فقط لأنه دافع عن دينه وأرضه ولم يخن، فاعتبره الناس (شهيد الإسلام).

قتل بسبب تلك المقاومة ٣٠٠ فرنسي وجرح ٧٠٠ منهم !

المنشور:

﴿ يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ التوبة: ٨

قبل ذكر قصة المنشور وما كان فيه لا بد أن نعلم أن الماسونية هي التي صنعت الثورة الفرنسية (الثورة التي اتخذت نفس شعار الماسونية الحرة والمساواة والإخاء شعارا لها) والتي وَجَدت - أعني الثورة - في شخص نابليون بونابرت بطلا يجسد أحلامها ويهزم أعداءها .

كان "نابليون" فقيراً إلى درجة أنه لا يستطيع أن يدفع أجرة غسيل ملابسه، ثم شاء الله أن ينتمي للجيش، ولا زال يترقى فيه حتى صار ضابطاً مشهوراً بالقسوة وعدم الرحمة.

كان "نابليون" صديقاً للماسوني المتعصب "أوجستن روبسبير" الذي أدخله إلى عالم "الماسونية"، وبفضل المجازر التي قام بها مع إيطاليا أحرز "نابليون" الدرجة الثلاثين في "الحركة الماسونية".

ولقد كان نابليون من غلاة الفلسفة وتجار السياسة الذين لا يكثرثون لدين.
ومما قال عليه لعائن الله تترى: (يكفي الرب شرفاً وفخراً أن هناك في
الأرض نابليون يسبح بحمده!!) تعالى الله عن قوله علواً كبيراً.

ولذلك من الطبيعي أن يدّعي الإسلام لتحقيق أهدافه، إذ قام بتوزيع
المنشور الذي كتبه باللغة العربية على المصريين، بدأه بالبسملة وشهادة
التوحيد وادعى فيه أنه ما جاء إلا ليخلصهم من ظلم المماليك وأنه ما جاء
للقتال، وادعى فيه أنه موحد يعبد الله ويخافه أكثر من المماليك وأن
الفرنسيين سيصبحون مسلمين والدليل خلعه للبابا الذي حث على محاربة
المسلمين، وبناء على ذلك ناشد المصريين لمساعدته في مهمته لطرد
المماليك!

مما قال في ذلك المنشور: (بسم الله الرحمن الرحيم.. لا إله إلا الله لا ولد
له ولا شريك له في ملكه... أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت لكم
بهذا الطرف إلا لإزالة دينكم وذلك كذب صريح... ما قدمت لكم إلا
لأخلصكم من يد الظالمين... وإنني أكثر من المماليك عبادة لله سبحانه
وتعالى وأحترم نبيه والقرآن.. قولوا للناس إنكم متساوون عند الله، وإن
الشيء الذي يفرقهم هو العقل والعلوم والفضائل فقط..) ثم بين أنه بعون

الله (هكذا قالها) لا ييأس المصريون من تسنم المراتب والمناصب وأنهم هم من سيتدبر أمر مصر...

ومما قال: (قولوا لأمتكم إن فرنساوية مسلمون مخلصون ودليل ذلك أنهم خربوا كرسي البابا الذي دائماً ما كان يحث النصارى على قتل المسلمين... وأن فرنساوية مخلصين للسلطان العثماني...) ثم دعا للسلطان العثماني ودعا على المماليك وحذر من الاقتراب منهم ومساعدتهم.

يطوي لنا الغدرَ في نصحٍ يشيرُ به، ويمزجُ السمَّ في شهدٍ ويسقينا
وكان نابليون قد قرأ عن الإسلام - قبل مجيئه - ، وقرأ شيئاً من القرآن،
وشيئاً عن الخلفاء والسلاطين؛ كي يتقمص دورهم حين نزوله !

ثم جمع الشيوخ وأئمة المساجد وقلدهم أوشحة بألوان فرنسا مما يعني
ولاءهم لفرنسا، لكن الشيخ الشرقاوي قام بطرحها فغضب منه نابليون،
وقال إنه لا يصلح للقيادة!

الأسطول الفرنسي يتحطم :

بعد المعركة في الإسكندرية أمر نابليون أسطوله بالرجوع لفرنسا لكن عاصفة
هوجاء أخرته وسببت له أضراراً جسيمة أكملها البريطانيون - بحكم
سيطرتهم على البحر المتوسط وعلمهم بخروج الأسطول الفرنسي من ميناء

طولون والترصد له مسبقاً والجولان في البحر انتظاراً له - وحطموا ما تبقى من الأسطول ببوارجه وأحرقوا السفن التي استولوا عليها في معركة تسمى معركة (أبو قير) ، وهذا الأمر أزم موقف نابليون؛ حيث إن الإمدادات ستقطع بعد ذلك! كان ذلك في ٢٠ صفر ١٢١٣هـ / ١٥ أغسطس ١٧٩٨م.

وبعد هذه المعركة التي خسرها نابليون وتحطم بوارجه التي كان معتمداً عليها صار في خطر، وكان لابد له من اتخاذ الحكمة لتثبيت سطوته في مصر؛ فقام بتجنيد الشبان المصريين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦-٢٤ سنة، وأمر ببناء معامل البارود خشية من انعدام الإمدادات الفرنسية.

الأخبار تصل القاهرة:

كان محمد كريم (حاكم الإسكندرية) قد أرسل للقاهرة يطلب المساعدة، وهناك وصلت الأخبار للقاهرة فقام المماليك باجتماعات عاجلة أثمرت عن القيام بالاستعدادات اللازمة؛ فأغلقت المتاجر والأسواق وأخذ الناس بنادقهم، وجمعوا عتاد القتال ولوازمه واستعدوا للنزال.

معركة إمبابة:

وصل الجيش الفرنسي مدينة (إمبابة)، وفي ١٦ صفر / ٢١ يوليو من نفس السنة دارت معركة ضارية، اشترك فيها كبار قادة الفرنسيين واكتفى

نابليون بمتابعة أحداثها بمنظاره من بعيد، وانهمزم المماليك، واستشهد من المصريين (٥٠٠٠) ومن المماليك (٢٠٠٠) ، ومن هنا دخل الفرنسيون القاهرة، وهرب بعض أمراء وزعماء المماليك إلى الشام، وتركوا البلاد، وتركوا الشعب يواجه مصيره لوحده.

الأعمال التي قام بها نابليون لتحقيق مآربه البعيدة:

وبعد المعركة واستقراره في القاهرة انهمك نابليون في استرضاء أهل مصر، فأشركهم - صورياً - في إقامة نظامه الجديد، وكذلك في السلطة، وأيضاً أوكل للمشايخ حكم القاهرة وَوَضَعَ ديوان عام يقومون عليه، وفعل ذلك لعلمه بمكانة المشايخ في قلوب المصريين، فهو يريد إرضاء المصريين ليمرّ عبر جسره إلى رغباته، ولن يتحقق ذلك -طبعاً- إلا بإشراك المشايخ هؤلاء وإشعارهم بأهميتهم!

وأنشأ الجمع العلمي بهدف نشر التنوير المزعوم - هذا أولاً -، ونشر المعلومات التاريخية عن مصر والبحث فيها - ثانياً - . وهذا الجمع له شعب أربع: (الرياضيات، والفيزياء، والاقتصاد السياسي، والأدب والفنون الذي تولاه أحد المستشرقين فبهر المصريين بالمطبعة العربية التي ستحفظ تراثهم وتنشره).

وقام بخداع المصريين بالعمل على تحسين أوضاعهم والاحتفاظ بالعلاقة الودية مع العثمانيين تمهيداً لتحقيق أهدافه الاستعمارية.

وقام أيضاً بشق قناة السويس من البحر الأبيض المتوسط للبحر الأحمر. وأمر ببناء مستشفى على شاطئ النيل، وأمر بضرب النقود باسم السلطان. وأنشأ الدواوين (التي كان يتستر من ورائها لتنفيذ سياسته الخبيثة في مصر) وقسم البلاد.

وقام كذلك باكتشاف كنوز مصر قديماً وحديثاً على أساس علمي (وفي الحقيقة كان بذلك يسرق الآثار المصرية القديمة).

وأمر المهندسين بإقامة الطواحين الهوائية/المائية، وأنشأوا القاعات العمومية للملاهي والمتنزهات.

وأصدر جريدتين: علمية اقتصادية و سياسية.

وبدت أحوال القاهرة في رواج اقتصادي لم تر مثله من قبل مما أبحر عقول بعض المثقفين الذين ازّينت لهم الدنيا لدرجة أنهم ظنوه عصرًا جيدًا لمصر والمصريين؛ فانقادوا لأفكار الفرنسيين القائمة على الحرية والمساواة وبدأوا يحلمون بها.

وحرص نابليون على احترام بعض العقائد والتقاليد وحرص على توعية جنوده بذلك، فشارك نابليون في احتفالات المولد النبوي ١٢ ربيع الأول ١٢١٣ هـ والتي كان يقيمها المذهب الصوفي الضال، ودعم الاحتفالات بالمبالغ المالية لشراء المشاعل والفوانيس، واستمر الاحتفال عدة أيام باستعراضات عسكرية وحفلات غنائية!

ولهذا يدرك المتأمل خطر الصوفية، وأنهم معول هدم لعقيدة المسلمين ووحدهم، فإن نابليون لما قدم مصر قال للناس: إن من عقيدتكم (الرضا بالقضاء والقدر) ودخولنا مصر من القضاء الذي قدره الله فارضوا به، ومن لم يرضَ فهو معترض على القضاء والقدر!

لقد كان يعلم أن من عقيدة الصوفية: أن الأخذ بالأسباب مخالف للعقيدة الصحيحة، فاستغلَّ ذلك ووجده مدخلاً لإثارة الشبه بين المصريين، ولعل في مصر من صدق كلامه! فانظر كيف تساعد الصوفية احتلال الغرب لعقول وبلدان المسلمين!

ومثل ذلك فعل الصوفية أيام دخول المستعمر الإيطالي لليبيا، إذ شاركوا معه في الغزو، وحرموا القتال مع عمر المختار ضد الإيطاليين، إلى أن قبض عليه بسببهم وخيانتهم! وقل مثل ذلك عن استعمار فرنسا للجزائر، إذ رحب

الصوفيون على منابرهم بالفرنسيين، وسموها بـ (الحبيبة)، حتى إنهم دعوا الشعب الجزائري للانضمام تحت رايته في الحرب العالمية الأولى!

هذه هي الصوفية!

وأخطر من ذلك كله: تميعهم العقيدة الحققة وإضلالهم المسلمين.

وحيث جاء وقت عيد الجمهورية الفرنسية ٢١ سبتمبر ١٧٩٨م حرص نابليون أن يكون احتفالاً مهيباً للتأثير على أهل مصر، فأقيمت المهرجانات وسباقات العدو لأول مرة، ودعي الأعيان لمأدبة كبيرة، وتزينت المدينة بالأعلام الفرنسية والتركية (العثمانية)، وظلت الموسيقى تعزف طوال الليل، ولكن هذه الاحتفالات فقدت الحماس الشعبي بسبب الكره لتلك المظاهر؛ ولذلك كان الناس يقولون عن شجرة الحرية التي نصبها الفرنسيون في الاحتفال بأنها (الخازوق)!

والحقيقة أن كل تلك الأعمال والإصلاحات والتطورات - وإن كان في ظاهرها أنها في صالح العباد والبلاد - إلا أنها في الحقيقة جسر يعبر نابليون من خلاله للتمكن من حكم مصر - برضا الشعب - ومن ثم التخلص من التبعية للعثمانيين، واستعمار مصر أخيراً، وجعلها تابعة لفرنسا؛ وبذلك

تتحقق أهداف الحملة الأنف ذكرها، ولكن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ

الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ الأنفال: ٣٠.

نابليون يكشف عن قناعه:

وفي المقابل كان نابليون جشعاً مستغلاً، أرهق المصريين بالضرائب التي بلغت مئات الآلاف على التجار، وعشرات الآلاف على أصحاب الحرف والمهن البسيطة والبائعين المتجولين بل حتى على النساء اللاتي ظلن في القاهرة بعد هروب أزواجهن المماليك مقابل تأمين حياتهن! وتدخل أعضاء الديوان كي لا يثور الناس، لكن نابليون رفض، وتفاقم الحال بعد تدمير الإنجليز لأسطوله البحري حيث انقطعت الإمدادات من فرنسا وأصبحت الحملة معزولة، فتفنن الفرنسيون في عصر المصريين!

وعمل الفرنسيون على خروج النساء والبنات للطرقات مكشوفات الوجوه، واشتهر في ذلك العهد شرب الخمر وبيعه، وأنشئت دارة للخلاعة للضباط، وجلبت المومسات، بل كانت النساء اللاتي جئن معه وعددهن ٣٠٠ امرأة يمررن في شوارع القاهرة سافرات معهن العبيد والخدم يفسحون الطريق لهن؛ ونتيجة لذلك ظهرت بعض مظاهر التحرر التي لم يتحملها المصريون!

يقول نقولا الترك (وهو مؤرخ أرمني نصراني) : كاد المصريون يموتون غيضاً
وكمداً.. لم يهتموا حين رأوا نساءهم وبناتهم مكشوفات الوجوه ومملوكات
من الفرنسيين ماشيات معهم في الطرقات.. كان المصريون يطلبون الموت
كل ساعة للتخلص من هذه المناظر..

ويقول: خرجت النساء خروجاً شنيعاً مع الفرنسيات، وبقيت مصر مثل
باريس في شرب الخمر والمسكرات وما لا يرضي رب الأرض والسماوات!!
وتزوج الفرنسيون من المصريات، فكان الفرنسي يتدرب على نطق الشهادة
كونها شرطاً للزواج، ثم يعقد على المرأة المصرية!

ثورة القاهرة الأولى:

وبعد ٣ شهور من وصول الحملة للإسكندرية وشهر من وصولها للقاهرة،
وتحديداً في ١١ جمادى الأولى ١٢٣٣هـ / ١١ أكتوبر ١٧٩٨م، ولما رأى
المسلمون استفزاز الفرنسيين لهم، ورفضهم إلغاء الضرائب، رأوا أنه لا بد من
الجهاد، فأرسلوا أحد الفقهاء ليدور في شوارع مصر يحض على التواجد في
الجامع لقتال الكفار وإزالة العار عنهم؛ وبالفعل تجاوب المسلمون لنداء
الجهاد، وأغلقت الدكاكين واندلعت الثورة الأولى في القاهرة، وفي الموعد
الذي حددته قيادة الثورة. كانت ثورة منظمة منهجية عدها بعض المؤرخين
جدة الثورات الشعبية اليوم ضد المستعمرين، والقدوة لهم.

كانت هذه الثورة الصدمة الثانية بعد تدمير الأسطول الفرنسي من قبل الإنجليز، حيث إن نابليون كان يعتقد أنه استولى على خيال المصريين وأنه سرق ألبابهم بشعاراته وتنظيماته وتسامحه الكاذب.

بدأ الناس الدعوة للجهاد، ونُظمت الصفوف، واجتمعوا في ساحات القاهرة وطرقاتها، ودعا المؤذنون بحج على الجهاد صباح مساء، وبعد تمام الاستعدادات تحددت ساعة الصفر، فانفجرت القاهرة وبدأت في حال لم يألفها الناس من قبل، فأغلقت الدكاكين والأسواق وانكب الناس في الشوارع، ودُعي في المآذن للخروج على المستعمر، وأقاموا الحواجز في الأسواق، وتدفقت الجموع وتدافعت المواكب من القرى والضواحي القريبة، وظهرت فصائل مسلحة توجهت لشكنات الفرنسيين ونشب الصدام وسقط الضحايا، وسقط الجنرال (ديبو) وقتل الكثير من الفرنسيين مثله وعدة جنود معه، وأصبحت القاهرة شعلة تضطرم!

وصلت الأخبار لنابليون فكاد أن يفقد صوابه وانتفض على الفور قاصداً الأزهر بحثاً عن أعضاء الديوان، وحين وصل وجد (يوم المحشر)، فكان هناك قرابة ١٥ ألفاً يكبرون ويلعنون المستعمر، فعلى الفور أعلن الحرب، وطارت وعوده وادعاءاته، وأرسل للشيوخ والأعيان في طلب الصلح، فظنوا أن الخوف حمله على ذلك؛ فاقتنعوا استجابة لطلبه، عندها أمر أربع فرق

من جيشه للإحاطة بالأزهر حتى لا يتمكن أحد من الفرار من الجامع ،
وقبل ظهر يوم ١٢ جمادى الأولى ١٢١٣هـ أمر نابليون بإطلاق المدافع
على الثوار التي نصبها جنوده في الليل على التلال تجاه الأزهر، وانحالت
القنابل على الأزهر فكانت تتفجر بهول ما عهدته السكان من قبل،
وصاحب تلك الأصوات المهيبه صوت الرعد وكثافة الغيوم مما زاد الموقف
خوفاً ورعباً، وكاد أن يتداعى الأزهر من شدة الضرب، واحترقت الدور
القريبة منه، وسقط الآلاف تحت الأنقاض، واستمر يضرب حتى الساعة
الثامنة مساءً، ووقع الاضطراب في صفوف الثوار فطلبوا الهدنة ولاذوا
بالمشايخ، وقبل نابليون شفاعتهم بعد تويخ، فتوقف الضرب، ولم يتوقف
الانتقام؛ إذ إنه حاكم المستسلمين محاكمة صورية انتهت بالحكم عليهم
بالإعدام، وحمل الأهالي غرامة مالية كبيرة!

وانتهت الثورة التي قاومت الفرنسيين، وطلب نابليون من العلماء إصدار
بيان يستنكر الثورة ويعلق على جدران مدن مصر ويطلبوا فيه من المصريين
التوقف عن العصيان، وتبليغهم ما حل بأهل القاهرة!

وحق نابليون حقاً شديداً حتى إنه أمر بقطع خمسة أو ستة رؤوس كل
يوم!

اقتحام الأزهر الشريف:

وفي فجر ٢٢ أكتوبر اقتحمت القوات الفرنسية جامع الأزهر، كانوا راكبين خيولهم، بينهم المشاة، وتفرقوا بصحنه ومقصوراته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الكتب، ونهبوا ما وجدوه من متاع وودائع مخبأة في الدواليب...

ذكر الجبرتي (وهو مؤرخ عاش ذلك العصر) أن الفرنسيين أشعلوا النيران في الغيطان، وأرهبوا الشعب المصري البائس بالضرائب الباهظة، وأخرجوا أصحاب المنازل من منازلهم، واستولوا عليها. وعاثوا بالأزهر وضربوه بالقنابل، ودخلوه بخيولهم وربطوها بقبلته، وداسوا المصاحف بأقدامهم، ودمروا خزائن الكتب والمخطوطات وسرقوا بعضها، ونهبوا ما وجدوا من المتاع والأواني والقصاع، وداسوا الكتب وطرحوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيهم، وكل من صادفوه عروه ومن ثيابه أخرجوه... (إنا لله وإنا إليه راجعون).

و ذبحوا أكثر من ٢٥٠٠ من المصريين - كما قال نابليون بونابرت في تقرير رسمي أرسله إلى فرنسا.

وذبحوا الأسرى المصريين وألقوا بجثثهم في قاع النيل ليلاً، بل حتى النساء
المصريات لم يسلمن من الذبح والصلب على يد الجزار الفرنسي. إلا أن هذا
لم يضعف من شأن المقاومة المصرية والمقاومين .

وأعدم ٦ من المشايخ بتهمة تدبير الثورة.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ
مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۗ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ البقرة: ١١٤

أثر ثورة القاهرة الأولى:

حفرت ثورة القاهرة هوة عميقة بين نابليون والشعب المصري، فأيقن أن
الخيار الأول وهو الصمود في مصر أصبح مستحيلاً؛ فلجأ للخيار الثاني
لتعويض النكسة وهو الزحف شمالاً للشام ثم القسطنطينية كمرحلة أولى ثم
الهند كمرحلة أخيرة للاستيلاء على الشرق كله وهو الهدف الأول الذي
جاء نابليون من أجله.

خرجت الحملة للشام باستعراض حافل، ولم يكذ يجتاز الحدود حتى تفتشى
في جيشه (ضباطاً وجنوداً) وباء الطاعون فحصد الكثير منهم.

ولما وصلت الحملة (يافا) استبسل المدافعون من أهلها وممن انضم إليها من المصريين، وخاض نابليون معركة قاسية استشهد خلالها من المقاومين ٢٠٠٠ من ٥٠٠٠ مقاتل، وقتل نابليون جميع الأسرى عدا المصريين الذين ردهم لبلادهم.

ثم أصدر نابليون أمره بالزحف لـ (عكا) فكانت المقاومة أشرس بكثير، لاستبسال أهلها وقيادة حاكمها: أحمد باشا الجزار - الذي كان مستبدًا ظالمًا قبل ذلك لكنه بدا شجاعاً أمام الفرنسيين ودافع عن المسلمين، ولا ننس أيضاً استفادة الأهالي من إمدادات الإنجليز لهم، واستنفد نابليون كل قواه لاقتحام المدينة لكنه عجز وآلى الرجوع بعدما تحطمت آماله على أسوار المدينة وفتك الطاعون بجيشه حتى أنه كان يموت منهم بسببه ١٤٠ شخص أسبوعياً، ورجع يرفع ألوية النصر داخلاً بها القاهرة بمصر؛ ظاناً أنه سيخضع بها أهلها لكنه لم يدر أن الأخبار بهزيمته سبقته إليها!

رجوع نابليون:

وفجأة استدعت باريس نابليون على وجه السرعة؛ وذلك لسببين: أحدهما: هزيمته في الشام، والآخر: نشوب فرنسا في خلافات مع دول أوروبية أخرى مضادة للثورة الفرنسية. فرجع نابليون بثلاث مراكب محملة بصناديق الذهب والجواهر والآلئ والأسلحة والأمتعة والأقمشة وغيرها من المفاخر

والتي سرقها من المماليك، وكان قد حمل ذلك ليلاً، ثم غادر مصر وترك مكانه لنائبه (كليب). .

وحمل الجنرال (مينو) - الذي تسمى ب (عبدالله) وتزوج امرأة مصرية وسيأتينا شيء عنه - حمل ثلاث رسائل من نابليون لكليب، وهي: تعيينه نائباً عنه في مصر، والثانية توصيات وتعليمات، والثالثة أن نابليون أرسل للعثمانيين يطلب الصلح وعلى كليب مواصلة المهمة!

وأعلنت بريطانيا والدولة العثمانية الإعداد لاسترجاع مصر من الفرنسيين، فأدرك المصريون أي مصير لهم إن عاد العثمانيون لمصر حيث ستتكرر سوءات المماليك، وستكون مصر بين نواجد هذه القوى الثلاث: بريطانيا والعثمانيون والمماليك، حيث إن بريطانيا ستتحالف مع المماليك للقضاء على العثمانيين ثم تنفرد بالمماليك وتقضي عليهم أيضاً ثم تنفرد باستعمار مصر!

وهنا أدرك الشعب أنه لا بد من عمل كبير يقطع الطريق عليهم، فكان الإعداد لثورة القاهرة الثانية.

ثورة القاهرة الثانية:

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها في الأمن أغلينا

بيض مفارقنا تغلي مراجلنا نأسوا بأموالنا آثار أيدينا

نُظِّمَت الثورة، وقسمت العاصمة، وتعبأ الناس، وقاموا بتموين الثوار،
وصنعوا البارود والقنابل والمدافع، وهذا مما لم يخطر على بال أحد!

قدر عدد القوات بـ ٥٠.٠٠٠ من القاهرة والصعيد والحجاز والمماليك
وغيرهم، كان هذا سنة ١٨٠٠ م .

وبدأت الثورة في ٢٠ مارس في حي بولاق، فما لبثت أن عمت المدينة
وامتلأت الشوارع، وانضم النساء والأطفال، واتجهت بعض القوات لمقرات
القيادة فحاصرتها، وأخرى ذهبت للشكنات، وصبوا جام غضبهم على
الفرنسيين الذين دهشوا لشراسة المقاتلين. كتب أحد الضباط في مذكراته
خبر تلك الثورة وبين اندهاشة من دقة التنظيم وصلابة المقاتلين وكثرة
السلاح رغم التفتيشات السابقة، وتفاجأ بأن الصفوف الأولى تضم
مصريين ظنت فرنسا أنهم موالين لها لما أبدوا من خدمة ولما أغدقت عليهم
فرنسا من عطف وأموال فإذا هم أشرس أعدائهم بين يوم وليلة!

عرض الفرنسيون الصلح مقابل العفو ولكن بلا فائدة، فاستماتوا في القتال
كما فعل المصريون، واستطاع الجيش الفرنسي النفاذ إلى المدينة وبدأت

معركة في حرب المدن والشوارع أشد ضراوة، وفقد الجنرال صوابه وذهل الفرنسيون، فتعاضم حقدهم وارتكبوا ما يمكن أن تسمى بـ (حرب إبادة).
ودك الجيش الفرنسي الأحياء في حي (بولاق)، وأحدث ثغرات في صفوف المصريين انطلق منها الجنود الفرنسيون إلى شوارع بولاق وأضرموا النيران في البيوت امتدت إلى المخازن والمتاجر ودمرت الحي وهدمت الدور وأبيدت العائلات تحت الأنقاض.

كتب مؤرخ فرنسي أن القوات الفرنسية لجأت للإحراق المنهجي واستباحة كل شيء مما أثار مخاوف كليبر من العواقب!

طلب الثوار التسليم في ٢١ إبريل ١٨٠٠ م ، بعد استمرارها ٢٣ يوماً.
كانت القاهرة بأحيائها قد دمرت وأحرقت، ودفن كثير من سكانها تحت الأنقاض!

ثم أعلن كليبر العفو العام للسكان (كشهامة فرنسية) لم تمض على هذه الشهامة سوى أيام حتى تبعها بإعلان مناقض تماماً وهو أن يؤدي سكان القاهرة غرامة مقدارها ١٢ مليون فرنك نصفه نقداً والآخر بضائع!

وتبع ذلك قرار بتسليم كل الأسلحة وعشرات الآلاف من البنادق. وغرامة قدرها ٨٠٠ ألف فرنك على محمد السادات (قائد الثورة كما ادعى كليبر

(وقام بسجنه وضربه حتى أجبره على إصدار إعلان يستنكر فيه الثورة،
كما فرض كليبر غرامة قدرها ٢٦٠ ألف على الشيخين الصاوي
والجوهري.

وأذل الفرنسيون أهل القاهرة بالغرامات والتفتيش واقتحام البيوت حتى
خربت البيوت وكثرت المصائب وباعوا متاعهم وهاجر آخرون وسجن منهم
من سجن، ولاقوا عنتاً لم يشأ به عنت في تاريخ الثورات!

عاقبة البطش (مقتل كليبر) :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ **فاطر: ٤٣**

وبينما كان كليبر - بلا حراس - يتجول في حديقة القيادة يعاين الإنشاءات
بعد مأدبة طعام فاخر، فوجئ بشاب في زي الفقراء وعليه كساء يمد يده
بطلب، وحين مد كليبر يده لتسلمه جبذه (سليمان الحلبي) الذي كان
يخبئ مدية تحت جلبابه وانقض عليه وطعنه ٣ طعنات في صدره قضت
عليه، كما طعن المهندس المرافق له الذي سقط بجانبه، ولاذ سليمان
بالفرار.

هرع الضباط مفزوعين نحو الحدث وبحثوا عن الجاني وقبضوا عليه مختبئاً في
الحديقة. وذاع النبا في المدينة، ثم حوكم سليمان ومن معه محاكمة صورية،

على إثرها عذب سليمان الحلبي عذاباً شديداً عرّى الحضارة الغربية تماماً، حيث أحرقوا إحدى يديه ثم قطعوها، وقطعت رؤوس ثلاثة كانوا معه أمامه - طافوا برؤوسهم في المدينة بعد ذلك - ثم قاموا ووضعوا سليمان على الخازوق (حديد طويل مسنن الطرف) فاخترقه من أسفله وقطع أحشاءه وظل معلقاً فيه يعتصر من الألم والوجع ويتلو القرآن، ولم يمض بعد، وذلك مدة ٤ ساعات، حتى رق له أحد الحراس وسمعه يرجو شربة ماء، فلما انصرف الجنود سقاه كوباً فمات. وبقي على الخازوق ٣ أيام تأكل الطير منه! وكل هذا أمام عيون المصريين!

وَأَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مَضَى إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى اسْتَشْهَدَا هُوَ وَالصَّبْرُ
سَقَى الْغَيْثُ غَيْثًا وَارَتْ الْأَرْضُ شَخْصَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ وَلَا قَطْرٌ
عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ وَقَفَا فإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرُ
وأرسلت رأس سليمان الحلبي إلى باريس، ومازالت إلى اليوم في مدرسة
الطب هناك!

وبعد هذا الاغتيال بدأ العد التنازلي لخروج الحملة من مصر.

خروج الحملة:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ الأنفال: ١٠

تولى بعده (مينو) الذي تسمى بـ (عبدالله) وأظهر الإسلام، ولم يكن يحظى بشعبية الضباط والجنود.

واختلف قادة الحملة فيما بينهم، وتفشى اليأس، وانقطعت الإمدادات.

واستغل البريطانيون ذلك فأعدوا للإجهاز على الحملة الفرنسية بالتعاون مع العثمانيين، ونشبت معركة أخرى في أبي قير، على إثر نتائجها الدموية لم يكن هناك مناص من تسليم الفرنسيين لمصر دون شرط سنة ١٨٠١م فرحل ما بقي من حطام الحملة على سفن البريطانيين وقد تفشى فيهم الطاعون مرة ثانية!

وفي أكتوبر ١٨٠١م تم إجلاء ١٠.٥٠٠ جندي هم ما تبقى من ٣٣ ألفاً كانوا قد هبطوا أرض مصر قبل ٣ سنوات! ورُحل ٦٠٠ مدني خليط من الشوام والمصريين والأرمن - بعضهم ممن تعاون مع الحملة - أبرزهم الخائن: (المعلم يعقوب) الذي أدرك أنه لم يعد له موطئ قدم في مصر، زاعماً أنه سيبحث في أوروبا عن مشروع استقلال مصر ولم يدر أنه سيموت في عرض البحر!

وفي ميناء طولون استقبلوا هناك استقبالاً متحفزاً خوفاً من انتشار الطاعون، ورحب بهم نابليون وقال في بيان له أن التاريخ لن ينسى ما نقلوه من حضارة غربية هناك وأنها لن تلبث حتى تثمر وتؤدي إلى نهضة تاريخية!

وبعد ذلك نشب الصراع بين القوى الثلاث: بريطانيا والعثمانيين والمماليك، في أيهم يحكم مصر. وحدثت أحداث أخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

وبهذا صار عمر الحملة لا يتجاوز الثلاث سنوات من ١٢١٣هـ - ١٢١٦هـ / ١٧٩٨م - ١٨٠١م كانت حملة خاسئة مندحرة مليئة بالثورات والحروب!

وعادت مصر ولاية عثمانية تعاني من ثلاث قوى متناحرة: المملوكية والعثمانية والإنجليزية، حيث كان للإنجليز قوة عسكرية في البلاد، ووقفوا بجانب المماليك ضد حلفائهم العثمانيين في السابق؛ حتى يتسنى لهم الانفراد بالمماليك فيما بعد والقضاء عليهم.

محمد علي:

الجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا حين أرادوا جلاء الفرنسيين من مصر قد أرسلوا جيشاً مقداره ٣٠٠ جندي على رأسه ابن الحاكم العثماني الذي

أخذ برفقته محمد علي باشا نائباً له (وهو أحد أبناء الطائفة الألبانية التي دخلت في دين الإسلام أيام السلطان محمد الفاتح وصار كثير من الألبان من قادة الجيوش العثمانية لما يمتازون به من قوة وصلابة في القتال ونباهة ونبوغ في العمليات الحربية)، وقد كان له شأن بغيض في مصر، واكتسب شعبية جارفة صنعتها الأحداث الساخنة في مصر وكذلك انضباط جيشه وقوته وانحيازه للأهالي؛ مما جعل بعض القوى تنضم إليه حتى ضم جيشه ٣٠٠٠ مقاتل، ومن ثم صار محمد علي هو القائد العام، وهذه الأمور جعلت أعيان أهل مصر يثقون به آملين الخير والعدل فيه، فعزلوا الوالي العثماني - الذي كان ظالماً وقد أصدر أمراً بسحب هذا الجيش الألباني دون استشارتهم - وأقاموا محمد علي مكانه عام ١٨٠٥ م .

ومن الطريف أنه - زيادة في الحبكة التمثيلية التي يقوم بها محمد علي - تمنع ولم يقبل بدايةً، وأظهر خشيته من السلطان العثماني وأن يتهم بأنه هو من حرض على إزالة الوالي، مما زاد من تمسك المصريين به حيث بينوا أن هذا رأي العامة والجميع، والعبرة برضا أهل البلاد، وأن نأخذ عليك العهد والمواثيق على أن تسير بالعدل ولا تبرم أمراً إلا بمشورتنا. وقبل محمد علي بذلك، فقام الشيخان: عمر مكرم والشرقاوي وأبساه خلعة الولاية، وأمرنا بأن ينادى: والياً على مصر!

وذلك يعني استقلال مصر عن الدولة العثمانية، ونهاية التبعية لها، وانقلاباً
في الحكم!

وكانت الدولة العثمانية تريد أن تكون مصر ولاية خالصة لها، خاصة بعد
إصدار السلطان العثماني أمراً بإبادة المماليك - المنافس التقليدي لها في
مصر - مما جعل العلماء والأعيان يدركون بأن هناك مصيراً ممثلاً ينتظرهم؛
ولهذا قرروا أن يبادروا هم بعزل الوالي؛ لأن الوالي قد أرسل للسلطان يخبره
بأن فتنة علي وشك أن تقوم في مصر يعد لها العلماء ويؤزهم محمد علي.

وامتنع الوالي العثماني من النزول على هذا الحكم، فقاموا بقتاله، وأدرك أنه
يستحيل مواجهة الشعب، فأرسل للمشايخ يستفسر في شرعية عزله فبينوا
له أن الشعب هو من يقرر العزل والتولية بموافقة العلماء وتصديق القاضي،
واحتدمت المعركة، واستمر الحصار، حتى جاء مرسل من السلطان العثماني
بعزل الوالي وتولية محمد علي، فهلت الجماهير وكبرت.

لكن العلماء رأوا ألا يفك الحصار عنه حتى ينزل الوالي ويرحل، وفعلاً
حصل ذلك بعد عدة أيام، وشيعت مصر آخر والٍ عثماني عليها.

وهكذا.. تولى محمد علي حكم مصر..

وأصبح رمزاً لها - وبئس الرمز - !

وإذا كانت هناك رموز إسلامية تصل حلقات التاريخ الإسلامي المشرف بعضها، فهناك رموز أخرى تفصل تبعية الأمة عن تاريخها؛ ليصنع بنفسه تاريخاً للأمة يبدأ من عنده! ولو صلح له ذلك زمناً فأنى له أن يغير سنة الله التي لا تتبدل كل الدهر!

آثار الحملة (سلباً وإيجاباً) :

١- الآثار السياسية:

- أفلح نابليون في استغلال بعض المصريين في بعض المناصب السياسية، كما أفلح نوعاً ما في خداع المصريين بادعائه الإسلام، لكنه أخفق في كسب مودة العلماء والمشايخ؛ لأنهم ينظرون للواقع بعيون قرآنية.
- قلد نابليون اليهود والنصارى الكاثوليك مناصب الترجمة والكتاب، وأسس فرقة عسكرية كاثوليكية سماها: الفرقة السورية، قائدها: يوسف الحموي من دمشق، بينما تسلم المعلم يعقوب القبطي (وهو خائن عميل لعين) الفرقة القبطية، حيث انضم لنابليون مع طائفته، وقُدد مناصب استشارية وعسكرية عالية، وقد غادر مع فرقته القبطية إلى فرنسا بعد رحيل الحملة ومات في عرض البحر.
- اشتراك المصالح النابليونية/ اليهودية والدعوة للاتحاد ضد المسلمين، ويتضح ذلك لما حاصر نابليون أسوار عكا؛ فقد دعا يهود العالم —

عبر منشور وزعه في الدول الأوروبية - من هناك ليكون لهم موطن
قدم في فلسطين، ودعاهم لمشاركته في مشروعه الاستعماري؛ فكانت
فرنسا أول المشجعين للمشروع الصهيوني!

- تكوّن حزب سياسي من المسلمين يناصر فرنسا. إذ صرح نابليون
برغبته ترحيل بعض الرهائن لفرنسا مدة سنة أو سنتين ليرجعوا
لبلادهم موالين لفرنسا وحضارتها ولغتها! هذا الحزب سمي بـ (حزب
فرنسا) أدى مع مرور الوقت إلى إنهاء الحكم الشرعي في مصر
والاستخفاف بشرائع الإسلام وانتشار الفساد - بعد ذلك - سواء
في الحملة الإنجليزية الأولى أو الثانية أو ما جرى من محمد علي
وخلفائه من بعده.

- لقد كان من أبرز الآثار: تهيئة الأنفس لقضم الخلافة الإسلامية
والانقلاب عليها، وبالتالي ما نتج عن ذلك من ضياع لفلسطين،
ووصول الأمة إلى حالة يرثى لها، أسهمت في تعزيز تكالب الغزاة
الذين ما فتئوا يطؤون أرض الإسلام بالتوالي حتى عصرنا الحالي.

٢- الآثار العسكرية:

- إعادة روح الجهاد في نفوس المسلمين وظهور شخصيات جهادية.
- شككت الحملة في قوة النظام العثماني الذي خضعت له مصر قروناً، وبدأت مصر تفقد الثقة به، مما مكن رجلاً مغامراً كمحمد علي لاستغلال هذا الضعف لصالحه.

- ذكرت إحصائية فرنسية حديثة أن قوات نابليون التي جاءت إلى مصر وفلسطين بلغت خسائرها ١٣ ألف قتيل سقطوا في المعارك . وهناك إحصائية أخرى تقدر خسائر الجيش الفرنسي بلغت ٢٨ ألف جندي أي أكثر من نصف قواته ، وأن عدد القتلى الفرنسيين أمام أسوار عكا وحدها بلغت ٥٠٠٠ قتيل .

٣- الآثار الاجتماعية:

- إن أول نتاج أخلاقي للثورة الفرنسية خارج أوروبا: أنها حولت الإنسان في الدول الفقيرة إلى مادة خام يجوز استنفاذها بالكامل لصالح المستعمر الذي ارتقى للتو بالمفاهيم الحضارية الأوروبية، ولتكون مفاتيح حرية المستعمر هي ذاتها أغلال الآخرين!
- رغم القيام بالإصلاحات الاقتصادية والصحية وغيرها إلا أن نابليون فشل في استمالة عواطف كل المصريين، بل زاد حقدهم عليه لما انكشف خداعه لهم وتستره خلف ادعاءات كاذبة.

- أثر استقدامه للمغنيات والراقصات السافرات في طبقات المجتمع المترفه والتي لبعضها اتصال بالثقافة الفرنسية؛ حيث انتشرت المفاسد وانحطت الأخلاق، أما الطبقة الوسطى الواعية فقد ظلت متمسكة بدينها وتقاليدها ولم تؤثر فيها الأساليب الفرنسية الماجنة؛ بل زاد كرههم للفرنسين لما شاهدوها.

وهكذا الغرب يريد أن يحصر الشباب المسلم بين كأس وغانية فقط؛ من أجل أن تموت فيه الهمة السامية والهدف الراقى.

- وجود أذئاب وجواسيس مخبرين تخلفوا بعد خروج الحملة ليواصلوا نشر الأفكار الفرنسية في مصر. ومكث البعض (من الهاربين من الجيش والمؤثرين البقاء) في مصر، ومنهم كبير الصيادلة: روايه، الذي أصبح فيما بعد طبيب محمد علي. وجمع محمد علي باشا من المتخلفين والهاربين أكثر من ١٣٠ فرنسياً أسند لهم مهمة تدريب المجندين من الزنوج والنوبيين ليصبحوا حرسه الخاص!

- ظهور أماكن لصنع الخمر في بلاد المسلمين والتي لا يستغني عنها الفرنسي.

ولا شك أن التغيير في تركيبة المجتمع وفي أفكاره (كما سنعلم في الآثار العلمية/ الفكرية) سيؤدي إلى تأثير البعض من المصريين دينياً.

- كان أهل الذمة في وفاق مع أهل مصر حتى استخدمهم نابليون لتحقيق مآربه، فمزق بذلك صف المجتمع المصري، ففعل القبط بالمسلمين الأفاعيل، وتجسسوا عليهم فدلوا الفرنسيين على عورات المسلمين.

ولولا زرع الكفار موالين لهم بين الصفوف المتراصة للمسلمين ما ارتفعت للكفر راية على مر التاريخ!

٤- الآثار الاقتصادية:

- سرقة مقدرات الشعب، ونهب الثروات المصرية.
- إذلال التاجر المسلم حتى صار يستجدي التاجر الفرنسي.
- العناية بشؤون الري، وفحص القنوات والجسور، وإنشاء قناة السويس، وغير ذلك، وكل هذا - بالطبع - حوروه لصالحهم أولاً وأخيراً.

٥- الآثار العلمية / الفكرية:

- إنشاء المجمع العلمي بأقسامه: (الرياضيات - الاقتصاد السياسي - الطبيعيات - الأدب والفنون) فدرس علماء تلك الفنون آثار البلاد وتاريخها وطبيعتها وأحيائها وغلاتها الزراعية والحالة السياسية والاقتصادية والجغرافية وكل ما يتعلق بالبلاد ماضيها وحاضرها. وتلك الدراسة كانت من أجل نهب الثروات المصرية قبل كل شيء.

- إدخالهم الطباعة عن طريق مطبعة الحملة، والتي طبعت الصحيفتين آنفتي الذكر. وكانت المطبعة خاصة بالفرنسيين لطبع منشوراتهم، ولم يطبعوا كتاباً واحداً للمواطن المصري، ويزعم البعض أن المطبعة الفرنسية أساس مطبعة بولاق، وهذا خطأ؛ لأن مطبعة بولاق جلبها محمد علي من إيطاليا على يد شاب عربي اسمه: نيقولا مسابكي، من أهل بيروت، إذ إن الفرنسيين حملوا معهم مطبعتهم لما رحلوا.

- بعثت فرنسا حملات تنصيرية لبلاد الشام لنشر الثقافة الفرنسية وتحبيب المسلمين للنصرانية، وفعلاً أثمرت هذه الحملات بعض الشيء؛ فبُهر البعض بالثقافة الفرنسية واقتنوا كتبها واتجه بعض الساسة لباريس لعقد المؤتمرات وإصدار النشرات.

٦- الآثار الدينية:

- أعادت الحملة للأذهان الحروب الصليبية العنيفة، وكأن هذه الحملة امتداد لها.

- انبهار البعض بالغرب والثقافة الفرنسية، خاصة ما يتعلق بتحرير المرأة! والعامل الذي يرى بعيون الإسلام يعلم أن تحريها لدى الفرنسيين المقصود منه تحرير الوصول إليها، ومن ثم استعبادها بجعلها لعبة بين أيديهم!

فها هم الفرنسيون حين دخلوا مصر لم نر المرأة المسلمة عندهم إلا امرأتين: إما يسوقونها كالبهيمة بين أيديهم، أو تحت الأنقاض! فأين الحرية المزعومة؟! إنهم يريدون تحريرها ليقيدوها هم!

- ادّعاء الإسلام من بعض الفرنسيين جنوداً وجنرالات ك (مينو) الذي تسمى بـ(عبدالله)، وكيف لمسلم أن يهدم المساجد ويبيي الخمارات مكانها، ويصدر مرسوماً يعتبر فيه مصر قطعة من فرنسا، ويحاول تغيير أحكام المواريث ويستبدلها بقانون فرنسي، ويأمر بإلغاء المحاكم المصرية ويستبدلها بمحاكم فرنسية للقضاء على النظام الإسلامي في مصر؟!!

وغير ذلك من الآثار مما ذكر في ثنايا الأسطر السابقة.

الخاتمة

كان هذا عرض موجز لأحداث صنعتها الحملة الفرنسية على مصر، والتي ورثت آثاراً نراها إلى اليوم، وخلفت تاريخاً حالك السواد عن الذين طالما صموا آذاننا بالشعارات البراقة كالحرية وتحرير المرأة والعدل والمساواة وغير ذلك مما رأيناه واقعاً في هدمهم البيوت وإحراق القرى وانتهاك الحرمات وإراقة الدماء ونهب الثروات في مصر. وهذا إن دل فإنما يدل على حقيقة الحضارة الغربية الكاذبة وأنه لا حل للعالم إلا بحضارة الإسلام!

تعلمنا هذه الحملة أن من لم يعتز بدينه من المسلمين أذله الله على أيدي الكافرين، وذهب به وأتى بقوم آخرين أعزة على الكافرين أذلة على المسلمين. وتعلمنا أيضاً: أنه بقدر التبعية للغرب يكون الذل. إن دراسة التاريخ الحديث، وإسقاطه على كثير من القضايا اليوم كافٍ لرؤية المستقبل بوضوح؛ وذلك يفضي بالعاقل للعمل الدؤوب على منع ما يسوء، أو تخفيفه، أو التحذير منه، وهذا من الخير الذي يأتي من المصائب والابتلاءات.

المراجع:

- ١- أثر الحملة الفرنسية على مصر والشام في شبه الجزيرة العربية، يسرى الحنفي، رسالة دكتوراة.
- ٢- الحملة الفرنسية على مصر نحتفل أو لا نحتفل، محمد عودة، دار الثقافة الجديدة، الطبعة الأولى.
- ٣- ودخلت الخيل الأزهر، محمد جلال كشك، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة.
- ٤- بعض من حلقات محمد موسى الشريف على قناة اقرأ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧ / ١٢ / ١٤٤٠ هـ